قصة الخلق الأول

إذا أخذنا الإنسان مثلاً، فإننا نأخذ هذا الخلق عن الله الذى خلق، ماذا قال الله سبحانه وتعالى؟ قال: خلقتك ﴿ مِن تُرَابٍ ﴾ [الكهف: ٣٧]، وقال: ﴿ مِّن طِينٍ ﴾ [الأنعام: ٢]، وقال: ﴿ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾ [الحجر: ٢٦]، وقال: ﴿ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ ﴾ [الرحمن: ١٤] هذه ليست تناقضات فى الخلق، أو تناقضات فى مادة الخلق نفسها وهى التراب، بل إن الله سبحانه وتعالى يبين لنا أطوار هذه المادة من التراب إلى الطين إلى الحمأ إلى الصلصال، إنها المراحل التى مر بها خلق الجسد البشرى من تراب إلى ما قبل نفخ الروح فيه. ﴿ مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴾ [الكهف ٥١].

ما معنى كلمة مُضِلّ؟ كلمة مُضل تعطى أن هناك قضية حق، وأن هناك إنسانا يريد أن يُضلّلنى ويُعطينى عكس القضية، أى يعطينى غير الحقيقة وهو الضلال، هذا هو معنى مضل، إذن.. فقول الله: ﴿ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴾.

أى إننى فى ساعة الخلق لم أطلب العون أو المساعدة أو المشورة أو النصيحة من هؤلاء المضلين، وإلا لوكان حدث ذلك، ثم جاءوكم يخبرونكم كيف تم خلق السماوات والأرض، وكيف خلقتم أنتم، لكان لكم العذر فى تصديقهم، ولكن ما داموا لم يشهدوا الخلق، ولم أطلب معونتهم، فإن ما سيقولونه لكم غير واقع، وغير صحيح، إنه إضلال وهذه معجزة من معجزات القرآن، فقد قال لنا الله: إنه سيكون هناك مُضِلّون وإن هؤلاء المضلين سيحاولون أن يقولوا لكم غير الحق فى قضية خلق السماوات والأرض وفى قضية خلق الإنسان، فلا تُصدّقوهم لأننى لم أستعن بهم ساعة الخلق، ولم يكونوا موجودين، إذن فلو لم يحدث أن جاء أناس يُضلون عن سبيل الله، لقلنا: إن القرآن غير صحيح ؛ لأنه أين المضلون؟ ولو وُجد المضِلون وتناولوا قضية أخرى غير خلق السماوات والأرض وخلق الإنسان لقلنا: إن القرآن غير صحيح ؛ لأنه يوجد من يضل عن سبيل الله، ولكنه لا يتناول فيما يقوله قضية خلق السماوات والأرض، ولا قضية خلق الإنسان، ولكن كون المضلين جاءوا وكونهم تحدثوا عن قضية خلق السماوات والأرض وخلق أنفسهم، وهل المادة قبل الروح، أم الروح قبل المادة، وقانون الصدفة ونظرية داروين إلى آخر هذا الكلام، كون هؤلاء جاءوا، وكونهم تناولوا قضية خلق السماوات والأرض وخلق الإنسان فهذا إثبات لما جاء فى القرآن عنهم، وكأن هؤلاء المضلين الذين جاءوا ليصدوا عن سبيل الله، إنما قدموا خدمة كبيرة للدعوة الإسلامية وللقرآن، بأنهم أثبتوا

بكفرهم صحة القرآن وصحة آياته أترى إعجازا أكثر من ذلك؟ يستخدم الله الكفار الذين يُضلون عن سبيله ويحاولون تكذيب القرآن، يستخدمهم الله سبحانه وتعالى ليقوموا وهم لا يدرون بإثبات صحة الدين الذى يحاولون أن يهدموه وبإثبات وجود الله سبحانه وتعالى، وهم يريدون أن يُنكروه فيقول فى قرآن نزل منذ أربعة عشر قرنا، إن هناك من سيأتى ليضل عن سبيل الله، ويتخذ من قضية خلق السماوات والأرض والإنسان مادة لهذا الإضلال، وكل ما سيقولونه هو غير الواقع، وأنا أنفى من الآن ما سيقولونه بعد مئات أو ألوف السنين، وأقول لكم: إنه غير صحيح.

إذن.. فكون هؤلاء المضلين جاءوا إثباتا للقرآن، وكونهم قالوا غير الحق ولم يستطيعوا أن يُدللوا عليه علميا، وأخذوا يطلقون نظرياتهم، كل نظرية تهدم الأخرى. وهم يجتهدون فى محاولة هدم منهج الله، ونحن نقول لهم إنكم تثبتونه؛ لأن الله أخبرنا عنكم فى القرآن منذ أربعة عشر قرنا وقال إنكم ستأتون وستفعلون كذا وكذا فى محاولة لتضليل الناس وهدم القرآن، أترى الإعجاز فى استخدام الكفار لتثبيت قضية الإيمان فى الكون؟!

إذن.. فخالق الإنسان هو الله، وخالق السماوات والأرض هو الله، وهذا أمر غيبى نأخذه عمّن خلق، إلا أن الحق سبحانه وتعالى حين يعرض قضية غيبية، فإنه ينير طريق العقل دائما بقضية نحسها ونشهدها، تقرب القضية الغيبية التى يتحدث عنها، فالله خلقنى من تراب، من طين، من حمأ مسنون، من صلصال كالفخار، ثم نفخ فىّ من روحه.

إذا أخذنا التراب ثم أضفنا إليه الماء فيصبح طينا، ثم يترك لتتفاعل عناصره فأصبح حمأ مسنوناً، كالذى يستخدمه البشر فى صناعاتهم، ثم يجفف فيصبح صلصالاً. هذه أطوار خلق الجسد البشرى.

فإذا جئنا للواقع، فلنسأل أنفسنا، الإنسان مقومات حياته من أين، من الأرض، من الطين؟ هذه القشرة الأرضية الخصبة هى التى تعطى كل مقومات الحياة التى أعيشها، إذن.. فالذي يُنَمّى المادة التى خلقت منها هو من نوع هذه المادة نفسه، وهى الطين ولقد حلل العلماء جسد الإنسان فوجدوه مكونا من ستة عشر عنصرا؛ أولها الأكسجين وآخرها المنجنيز والقشرة الأرضية الخصبة مكونة من العناصر نفسها، إذن فعناصر الطين الخصب هى عناصر الجسم البشرى الذى خلق منه نفسها، هذا أول إعجاز، وهذه تجربة معملية لم يكن هدفها إثبات صحة القرآن أو عدم صحته، ولكنها كانت بحثا من أجل العلم الأرضى.

ولقد جعل الله سبحانه وتعالى من الموت دليلا على قضية الخلق، فالموت نقض للحياة أى إن الحياة موجودة، وأنا أنقضها بالموت، ونقض كل شىء يأتى على عكس بنائه، فإذا أردنا أن نبنى عمارة نبدأ بالدور الأول، وإذا أردنا أن نهدمها نبدأ بالدور الأخير، إذا وصلت إلى مكان وأردت أن أعود، أبدأ من آخر نقطة وصلت إليها؛ إنها تمثل أول

خطوة فى العودة، ونحن لم نعلم عن خلق الحياة شيئا ؛ لأننا لم نكن موجودين ساعة الخلق ولكننا نشهد الموت كل يوم، والموت نقض الحياة، إذن هو يحدث على عكسها، أول شيء يحدث فى الإنسان عند الموت، أن الروح تخرج وهى آخر ما دخل فيه، أول شيء خروج الروح، إذن آخر شيء دخل الجسم هو الروح ثم تبدأ مراحل عكس عملية الخلق بتصلب الجسد، هذا هو الصلصال، ثم يتعفن فيصبح رمة، هذا هو الحمأ المسنون، ثم يتبخر الماء من الجسد ويصبح الطين ترابا ويعود إلى الأرض، إذن . . فمراحل الإفناء التى أراها وأشهدها كل يوم هى عكس مراحل الخلق فهناك الصدق فى مادة الخلق، والصدق فى كيفية الخلق، كما هو واضح أمامى من قضية نقض الحياة، وهو الموت.

شيء آخر، يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى ﴾ [ص : ٧٢] .

ومعنى النفخ ؛ أى : النفس، أى إن هناك نفَساً خرج من النافخ إلى المنفوخ فيه فبدأت الحياة، وبماذا تنتهى الحياة؟ بخروج هذا النفس، فأنت إذا شككت فى أن أى إنسان قد فارق الحياة، يكفى أن يقال لك : إنه لا يتنفس، ليتأكد يقينا أنه مات إذن فدخول الحياة إلى الجسد هو دخول هذا النفس، مصداقا لقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى ﴾ [ص : ٧٢] .

وخروجها هو خروج هذا النفس، فالمسألة تبينت كما قال الله سبحانه وتعالى .

معجزة القرآن.. وعلم الأجنة

إذا كنا نريد إعجازا أكثر، فلننظر ماذا قال القرآن فى علم الأجنة، علم تكوين الجنين فى بطن أمه، وقد تناولت هذه المسألة فى فصل سابق، ولكننى أعود فأقول، هل تناول أحد هذه المسألة قبل القرآن أو عصر القرآن، أو بعده بفترة؟ أبدا.. أول من تحدث عنها هو القرآن، وأعطانى ما هو غائب عنى؛ لأن خلقى هو غيب، فكون الله سبحانه وتعالى يأتى فى قرآنه ويعطينى مراحل تكوين الجنين، فهذه آية من آيات عظمته وقدرته وعلمه يقول الله فى أطوار الجنين: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ۝ ﴾ [المؤمنون].

علم الأجنة ما عرفه الناس إلا حديثا، والقرآن كما قلت كلام متعبد بتلاوته، لا تبديل فيه ولا تغيير؛ أى إن القضية التى يذكرها ستبقى كما هى إلى آخر الدنيا، فعندما يأتى القرآن ويخبر بهذا فكأنه يتحدى العلم والعلماء، إلى يوم القيامة، يقول لهم هذا هو تكوين الجنين فى بطن أمه، وأنا أذكره لكم وأذكر مراحله بالتفصيل، لم يشهده أحد من البشر حتى ساعة نزول هذا القرآن، ولا حتى بعد نزوله بمئات السنين، ولكننى أسجله لتعلموا عندما أعطيكم من العلم ما تستطيعون به معرفة أطوار الجنين، لتعلموا أن القائل هو الخالق؛ لأنه لا يمكن لأحد أن يقول هذا الكلام، وأن يتحدى بصحته على مرّ العصور، وأن يخترق الحجب ليروى شيئا لم تكن البشرية تعرفه أو تعلم به، إلا أن يكون ذلك هو الله، وإلا فكيف يأمن أى إنسان، أى بشر مهما بلغ من العلم، كيف يأمن أنه بعد عشرات السنين، أو مئات السنين، لن يأتى من يناقض هذا الحديث، وما يثبت عدم صحته.

فإذا لم يكن الحديث هنا عن الله، وإذا لم يكن عن يقين كامل، فكأن القرآن قد أعطى معه وسيلة هدمه. كان يكفى أن يقول إنسان: إن القرآن يقول هذا عن أطوار الجنين، وقد أثبت التقدم العلمى أنه غير صحيح، كان يكفى أن يُقال هذا ليهدم قضية الدين من أساسه ويكون القرآن قد أعطى للكفار أقوى سلاح يهدمونه به، فالذى كشف علم الأجنة متأكد تماما أن ما يقوله هو الحق، وأن تطور العلم مهما جاء فإنه لن يأتى ليناقض هذا الكلام ولقد أثبتت أحدث البحوث عن الجنين، صحة ما ذكره القرآن منذ أربعة عشر قرنا، ولم تختلف عنه، فى أى تفصيل من التفصيلات، رغم أن هذا كان أمرا غيبيا، وأمرا لم يتحدث عنه، أى: إنسان قبل أن يأتى القرآن، ومع ذلك فقد ذكره القرآن

بالتفصيل، وحدد أطواره وجاء العلم بعد ذلك ليثبت هذه الحقيقة، إذن فلابد أن قائل القرآن هو الله ؛ لأن الذى يعلم يقينا هو الله وحده.

إذن.. فالقرآن عندما نزل كان له أكثر من معجزة، تحدى العرب فى بلاغتهم، ثم مزّق حواجز الغيب الثلاثة، مزق حجاب الزمن الماضى، وروى لنا بالتفصيل تاريخ الرسل وحوادث من سبقنا من الأمم، وتحدى فيها، ثم مزق حجاب المكان وروي لنا ما يدور داخل نفوس الكفار والذين يحاربون الإسلام وما يبيتونه للمسلمين، روى لنا ما يدور داخل نفوسهم، ولم تنطق به شفاههم ولم يجرؤ واحد منهم أن يكذب القرآن ويقول: لم تهمس نفسى بهذا، ثم مزق حجاب المستقبل القريب، وتنبأ بأحداث ستقع بعد شهور وبأحداث ستقع بعد سنوات وتحدى، وحدث كل ما أنبأ به القرآن.

ثم بعد ذلك مزق القرآن حجاب المستقبل البعيد ؛ ليعطى الأجيال القادمة من إعجازه ما يجعلهم يصدقون القرآن ويسجدون لقائله وهو الله. ولكن القرآن نزل فى زمن لو أن هذه المعجزات المستقبلة جاءت تفصيلية لكفر عدد من المؤمنين وانصرف آخرون، ذلك لأن الكلام كان فوق طاقة العقول فى ذلك الوقت، ومن هنا وحتى لا يخرج المؤمن عن إيمانه ويستمر الإعجاز، جاء القرآن بنهايات النظريات، بقمة نواميس الكون، إذا تليت على المؤمنين فى ذلك الوقت، مرت عليهم، ولم ينتبهوا إلى مدلولها الحقيقى العلمى، وإذا تليت بعد ذلك على الأجيال القادمة عرفوا ما فيها من إعجاز، وقالوا: إن هذا كلام لا يمكن أن يقوله شخص عاش منذ آلاف السنين، إذن فلابد أن هذا القرآن حق من عند الله. وأن قائله هو الله الخالق.

بقيت نقطة: هل يأتى هذا فى الأحكام؟ الجواب: لا، إن أحكام الدين افعل ولا تفعل نزلت كاملة واضحة لا لبس فيها ولا إضافة عليها ولا تبديل ولا غموض منهج الله كامل، فسرته الأحاديث القدسية والأحاديث النبوية، وشرح وفسر فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم تفسيراً كاملاً، بحيث أصبح واضحاً لكل إنسان يريد أن يعبد الله وأن يعيش فى الأرض طبقا لقوانين الله، افعل ولا تفعل، جاءت واضحة وكملت وفسرت فى عهد الرسالة، وأصبح الحلال بينا، والحرام بينا، والدين بينا [1].

---

(١) قال الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم: ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ ﴾ [النحل: ٤٤] يعني القرآن. ﴿ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ في هذا الكتاب من الأحكام والوعد والوعيد بقولك وفعلك ؛ فالرسول صلى الله عليه وسلم مبين عن الله عز وجل مراده مما أجمله في كتابه من أحكام الصلاة والزكاة، وغير ذلك مما لم يفصله. ﴿ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ نقلا عن تفسير القرطبي.

وقال تعالى: ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ [المائدة: ٣] وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم حين كان بمكة لم تكن إلا فريضة الصلاة وحدها، فلما قدم المدينة أنزل الله الحلال والحرام إلى أن حج ؛ فلما حج وكمل الدين نزلت هذه الآية: ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ الآية ؛ على ما نبينه روى الأئمة=

أما آيات الله فى الكون . . فالملاحظ أنها لم تفسر تفسيراً كاملاً فى عهد الرسول

= عن طارق بن شهاب قال: جاء رجل من اليهود إلى عمر فقال: يا أمير المؤمنين آية في كتابكم تقرؤونها لو علينا أنزلت معشر اليهود لاتخذنا ذلك اليوم عيدا ؛ قال: وأي آية؟ قال: ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ فقال عمر: إني لأعلم اليوم الذي أنزلت فيه والمكان الذي أنزلت فيه ؛ نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم بعرفة في يوم جمعة. لفظ مسلم. وعند النسائي ليلة جمعة. وروي أنها لما نزلت في يوم الحج الأكبر وقرأها رسول الله صلى الله عليه وسلم بكى عمر ؛ فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما يبكيك»؟ فقال: أبكاني أنا كنا في زيادة من ديننا فأما إذ كمل فإنه لم يكمل شيء إلا نقص. فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: «صدقت». وروى مجاهد أن هذه الآية نزلت يوم فتح مكة.

قلت: القول الأول أصح، أنها نزلت في يوم جمعة وكان يوم عرفة بعد العصر في حجة الوداع سنة عشر ورسول الله صلى الله عليه وسلم واقف بعرفة على ناقته العضباء، فكاد عضد الناقة ينقد من ثقلها فبركت. و ﴿ الْيَوْمَ ﴾ قد يعبر بجزء منه عن جميعه، وكذلك عن الشهر ببعضه ؛ تقول: فعلنا في شهر كذا وكذا وفي سنة كذا كذا، ومعلوم أنك لم تستوعب الشهر ولا السنة ؛ وذلك مستعمل في لسان العرب والعجم. والدين عبارة عن الشرائع التي شرع وفتح لنا ؛ فإنها نزلت نجوما وآخر ما نزل منها هذه الآية، ولم ينزل بعدها حكم، قاله ابن عباس والسدي. وقال الجمهور: المراد معظم الفرائض والتحليل والتحريم، قالوا: وقد نزل بعد ذلك قرآن كثير، ونزلت آية الربا، ونزلت آية الكلالة إلى غير ذلك، وإنما كمل معظم الدين وأم الحج، إذا لم يطف معهم في هذه السنة مشرك، ولا طاف بالبيت عريان، ووقف الناس كلهم بعرفة. وقيل: ﴿ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ بأن أهلكت لكم عدوكم وأظهرت دينكم على الدين كله كما تقول: قد تم لنا ما نريد إذا كفيت عدوك.

لعل قائلا يقول: قوله تعالى: ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ يدل على أن الدين كان غير كامل في وقت من الأوقات، وذلك يوجب أن يكون جميع من مات من المهاجرين والأنصار والذين شهدوا بدرا والحديبية وبايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم البيعتين جميعا، وبذلوا أنفسهم لله مع عظيم = ما حل بهم من أنواع المحن ماتوا على دين ناقص، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم في ذلك كان يدعو الناس إلى دين ناقص، ومعلوم أن النقص عيب، ودين الله تعالى قيم، كما قال تعالى: ﴿ دِينًا قِيَمًا ﴾ [الأنعام: ١٦١] فالجواب أن يقال له: لم قلت إن كل نقص فهو عيب وما دليلك عليه؟ ثم يقال له: أرأيت نقصان الشهر هل يكون عيبا، ونقصان صلاة المسافر أهو عيب لها، ونقصان العمر الذي أراده الله بقوله: ﴿ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ ﴾ [فاطر: ١١] أهو عيب له، ونقصان أيام الحيض عن المعهود، ونقصان أيام الحمل، ونقصان المال بسرقة أو حريق أو غرق إذا لم يفتقر صاحبه، فما أنكرت أن نقصان أجزاء الدين في الشرع قبل أن تلحق به الأجزاء الباقية في علم الله تعالى هذه ليست بشين ولا عيب، وما أنكرت أن معنى قول الله تعالى: ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ يخرج على وجهين: أحدهما: أن يكون المراد بلغته أقصى الحد الذي كان له عندي فيما قضيته وقدرته، وذلك لا يوجب أن يكون ما قبل ذلك ناقصا نقصان عيب، لكنه يوصف بنقصان مقيد فيقال له: إنه كان ناقصا عما كان عند الله تعالى أنه ملحقه به وضامه إليه ؛ كالرجل يبلغه الله مائة سنة فيقال: أكمل الله عمره ؛ ولا يجب عن ذلك أن يكون عمره حين كان ابن ستين كان ناقصا نقص قصور وخلل ؛ فإن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقول: «من عمره الله ستين سنة فقد أعذر إليه في العمر». ولكنه يجوز أن يوصف بنقصان مقيد فيقال: كان ناقصا عما كان عند الله تعالى أنه =

صلى الله عليه وسلم حتى لا تكون ملزمة للمسلمين، لماذا؟ لأن لهذا عطاء يتجدد فى كل الأجيال، وهذه الآيات هى التى تحدثنا عن بعضها، لقد تحدى القرآن العرب بالإعجاز فى اللغة، طلب أن يأتوا بمثل القرآن ثم زاد فى التحدى وقال: ﴿ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ ﴾ ولكن التحدى للعالم لا يمكن أن يكون باللغة، فاللغات مختلفة، إذن بماذا تحداهم؟ بالعلم وكان التحدى مطلقا إلى يوم الدين، قال: أنتم جميعاً لن تستطيعوا أن تخلقوا شيئا، حتى نهاية العالم، ثم تحداهم بخلق ماذا، بخلق كون كالذى خلقه؟ لا، بخلق مجموعة شمسية من عشرات المجموعات الشمسية الموجودة فى الكون، لا بخلق شمس أو قمر أو نجم، لا، إذن. . تحداهم بخلق الكرة الأرضية مثلاً، أبداً، لا بد أنه تحداهم بخلق الإنسان أبداً، لقد تحداهم أن يخلقوا ذبابا، ففى سورة الحج قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴾ [الحج: ٧٣].

وهكذا تحدى الله البشرية كلها إلى يوم القيامة بأن يخلقوا ذبابة، وقال: إن العلم الذى ستعبدونه من دون الله والذى ستؤمنون به، هذا العلم وكل القائمين عليه لن يستطيعوا أن يخلقوا ذبابة ولو اجتمعوا.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ﴾.

ثم قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴾.

= مبلغه إياه ومعمره إليه. وقد بلغ الله بالظهر والعصر والعشاء أربع ركعات؛ فلو قيل عند ذلك أكملها لكان الكلام صحيحا، ولا يجب عن ذلك أنها كانت حين كانت ركعتين ناقصة نقص قصور وخلل؛ ولو قيل: كانت ناقصة عما عند الله أنه ضامه إليها وزائده عليها لكان ذلك صحيحا فهكذا، هذا في شرائع الإسلام وما كان شرع منها شيئا فشيئا إلى أن أنهى الله الدين منتهاه الذي كان له عنده. والله أعلم.

والوجه الآخر: أنه أراد بقوله: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ أنه وفقهم للحج الذي لم يكن بقي عليهم من أركان الدين غيره، فحجوا؛ فاستجمع لهم الدين أداء لأركانه وقياما بفرائضه؛ فإنه يقول عليه السلام: «بني الإسلام على خمس» الحديث. وقد كانوا تشهدوا وصلوا وزكوا وصاموا وجاهدوا واعتمروا ولم يكونوا حجوا؛ فلما حجوا ذلك اليوم مع النبي صلى الله عليه وسلم أنزل الله تعالى وهم بالموقف عشية عرفة ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى ﴾ فإنما أراد أكمل وضعه لهم؛ وفي ذلك دلالة على أن الطاعات كلها دين وإيمان وإسلام. نقلا عن تفسير القرطبي.

هذا وروى البخاري [٥٢] ومسلم [١٥٩٩/ ١٠٧] عن النعمان بن بشير رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: الحلال بيِّن والحرام بيِّن وبينهما مشبهات لا يعلمها كثير من الناس، فمن اتقى المشبهات استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع فى الشبهات كراع يرعى حول الحمى يوشك أن يواقعه، ألا وإن لكل ملك حمى، ألا إن حمى الله في أرضه محارمه، ألا وإن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب.

وأضاف: ﴿ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾.

والعجيب أن الإنسان قد وصل إلى القمر، وقد يصل إلى المريخ، وقد يستكشف أبعد من ذلك.. ولكنه عاجز عن أن يخلق جناح ذبابة حتى الآن، وهو طلب ضعيف جدًا بالنسبة لقدرة الله سبحانه وتعالى فى خلق ملايين الكائنات، ولذلك قال الله تعالى: ﴿ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴾.

ثم أضاف سبحانه وتعالى: ﴿ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾.

أى: إن قدرة الله سبحانه وتعالى تفوق كل الحدود والتصورات التى قد ترد على خواطركم أنتم لا تعرفون قدرة الله، ثم تحدى الله بعد ذلك فى قرآنه تحدى باستمرار الحياة، الماء الذى خلق منه كل شىء حى، قال الله تعالى: ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ۝ أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ ۝ ﴾ [الواقعة].

وقال تعالى: ﴿ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ ﴾ [لقمان: ٣٤].

أى: إن الله سبحانه وتعالى هو الذى يرسل إليكم الأمطار والماء سيأتى مدرارا ليسقى الدنيا كلها، البشر والطيور، والوحوش والزرع وكل شىء حى، هذا الماء الذى تَعُبُّ منه البشرية كلها عبًا، تجد الإنسان عاجزا عن أن يصنع نهرا مع أن عناصر تكوين الماء موجودة فى الكون، أمام العلماء، والمساحات الشاسعة من الصحارى فى الأرض محتاجة إلى قطرة ماء ثم تحدى الله سبحانه وتعالى بعد ذلك، تحدانا أن نهرب من الموت، قال: ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ﴾ [النساء: ٧٨].

أى: إن الله سبحانه وتعالى يتحدى، فمهما وصلتم إلى العلم، فلن تستطيعوا أن تنجوا من الموت، إنكم تقولون فى العلم الأرضى إن الموت يحدث بسبب جراثيم كذا وأمراض كذا إلى آخره، حسنا، شيدوا برجا وضعوا فيه إنسانا، وأبعدوه عن كل المخاطر التى فى رأيكم وفى نظركم تسبب الموت، فلا هو يحارب ولا يمشى فى أى مكان ليصاب فى حادث فلا يستنشق هواء ملوثا بل يستنشق هواء نقيا، ويأكل من طعام مطهر على أحدث الوسائل الصحية، ويشرب من ماء ليس فيه جرثومة واحدة والجو الذى يعيش فيه منقى إلى آخر درجات العلم، هنا نكون قد أبعدنا عن هذا الإنسان كل مسببات الموت التى نعرفها ومع ذلك فهل يمكن أن يكتب لإنسان مثل هذا الخلود رغم أننا منعنا عنه كل الأسباب الظاهرية للموت، الجواب طبعاً مستحيل؛ لأن الله هو الذى يحيى ويميت، الأسباب لا تفعل بنفسها ولكنها تفعل بإرادة الله. ثم تحدى الله العالم كله فى القرآن بخمسة مغيبات.

قال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ﴾ [لقمان: ٣٤].

تحدى الله بهذه المغيبات، تحدى البشر جميعا، فكأن القرآن كما تحدى العرب فى اللغة عندما نزل، حمل تحديات للعالم أجمع، وقال لهم: إنكم لن تصلوا إلى كذا وكذا إلى آخر عشرات التحديات التى ساقها القرآن للبشرية جميعا، قال لن تصلوا إلى كذا، لن تفعلوا كذا،لن تخلقوا كذا، وكانت هذه التحديات لكل البشرية ولكل العصور ومازالت قائمة حتى الآن، ومازالت البشرية كلها عاجزة أمام قدرة الله، لماذا؟ إن السر يكمن فى كلمتين، ﴿ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ ﴾ [الصفات: ١٥٩]، و ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾ [الشورى: ١١].

❁ ❁ ❁

قوانين اليقظة.. وقانون النوم

الإنسـان فى علاقته بالله سبحانه وتعالى يدخل فى حالات متعددة تتغير فيها طبيعة اتصاله بما هو غيب عنه بالنسبة للشخص الواحد، فالإنسان مثلا حين يكون فى يقظة وفى حياته اليومية يرى الأشياء بقدر ما تعطيه هذه اليقظة من وعى دنيوى، أو بقدر ما يحجب عنه جسده المادى من أشياء قد لا يعرف عنها شيئا، والإنسان وهو يقظ خاضع للعقل خضوعا كاملاً، فإذا نام مثلاً تغير الحال، وأصبح يرى فى نومه أشياء لا يراها فى اليقظة ولا تدخل فى نطاق العقل البشرى، فيمكن أن يرى نفسه يطير فى الهواء مثلا أو يرى نفسه فى أماكن لم يرها فى حياته الدنيوية، أو يتحدث فى الحلم مع أشخاص ماتوا إلى رحمة الله منذ مدة طويلة، وفارقوا هذه الدنيا، أو يرى أشياء عجيبة تحدث له لا تتفق مع العقل والمنطق، ولا مع مهاراته، فقد يرى مثلا أنه يركب حصانا وهو لا يعرف ركوب الخيل، أو أنه يقوم بعمل لا يتقنه فى الدنيا، والعجيب أن الرؤيا تتم والعين مغلقة تماما، أى إن الذى يرى ليس هو العين، وإنما الروح.

إذن.. فالروح لها رؤيا خاصة وهى يمكن أن تلتقى مع الذين فارقوا الحياة وتتحدث معهم والإنسان نائم يكون فى عالم آخر غير عالم اليقظة، وتلتقى روحه وهو نائم مع أمه أو أبيه اللذين فارقا الحياة منذ سنوات، ويرى أشخاصاً وأشياء لم يعرفها فى حياته بل ولا تتفق مع منطق الحياة.

ولكن ما الذى يجعل الإنسان يرى وهو نائم ومغمض العينين مالا يراه وهو مستيقظ وما الذى يجعله يرى أماكن لأشخاص لم يشاهدهم فى حياته، فإذا استيقظ ضاع كل هذا وبماذا نفسر هذه الظاهرة؟ نقول: إننا حين نصل إلى أشياء تقف فيها عقولنا لأنها تخالف ما نعتاد ونألف نضعها تحت عنوان: ﴿ سُبْحَانَ اللَّهِ ﴾ [الصفات: ١٥٩]. و ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ [الشورى: ١١]. ذلك لأننا لا نعرف قوانين الروح والجسد قائم، ولا نعرف قوانينها بعد أن تفارق الجسد ذلك غيب عنا تعجز عنه عقولنا، لذلك نضعه تحت عبارة: ﴿ سُبْحَانَ اللَّهِ ﴾ و ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾.

ونفسر هذه العبارة قليلاً، إذا قلت: إن فلانا قد ضرب فلانا بكل قوته، هل تعنى شيئاً الجواب: أبدا، لا يكون للشىء معنى إلا إذا نسب لفاعله، ووضعت فيه قدرات هذا الفاعل، بمعنى أننى إذا قلت: إن طفلاً صغيراً عمره أشهر ضربنى بكل قوته، وقلت إن

بطل العالم فى الملاكمة ضربنى بكل قوته، فهناك فرق كبير بين المعنيين، الأول ضربه لا يؤثر فئ. . ولا أحس به، والثانى ضربه قد يقتلنى، مع أن الاثنين قد استخدما كل قوتهما التى وهبها الله لهما فى عملية الضرب، ولكن الفعل هنا يتناسب مع الفاعل فالطفل لا أكاد أحس بضربه، وبطل العالم يستطيع أن يحطم ضلوعى بسهولة.

إذا أخذنا هذا المثل، ووضعنا الله تعالى تحت عبارة: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ ﴾ [الصفات: ١٥٩]. و﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾، استطعنا أن نقرب كثيراً من المعانى التى قد يستغلها البعض لإضلال البشر. . لله سبحانه وتعالى قوة، ولى قوة، ولكن هل قوتى مثل قوة الله سبحانه وتعالى؟ لله سبحانه وتعالى علم ولى علم، ولكن هل علمى مثل علم الله سبحانه وتعالى؟ الله حى وأنت موصوف بالحياة، فلا تقل: إن حياتك مثل حياة الله سبحانه وتعالى، وجود الله سبحانه وتعالى ليس كوجودك، وعلمه ليس كعلمك وقدرته ليست كقدرتك، ومن هنا يخرج وجه المقارنة، حيث إنه لا مقارنة، فالله بقدراته وقوته يأتى تحت وصف ﴿ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ ﴾، ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾، ومن هنا فإننى لا يجب أن أنسب إلى نفسى بالمدلول البشرى ما يقوله الله سبحانه وتعالى عن ذاته فعندما أتصور قوة الله لا أقارنها بقوتى، ولكننى أقول: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ ﴾، ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾ وعندما أتصور انتقام الله لا أقارنه بانتقامى، وإنما أضعه تحت عبارة: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ ﴾، ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾.

ومن هنا تجد تحت هذه العبارة: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ ﴾، ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾، أننا نستطيع أن نصل إلى مدلول أشياء كثيرة، فأنت مثلاً لا تستطيع أن تتصور إلا ما تراه، وعندما يخبرك الله سبحانه وتعالى عن أشياء لا تراها، تضعها تحت عنوان ﴿ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ ﴾، ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾، لأنه شتان بين رؤياك ورؤيا الله سبحانه وتعالى، مثلا ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ ﴾ [الإسراء: ١]، من الذى أسرى، الله سبحانه وتعالى، أسرى برسوله إلى المسجد الأقصى، لا تأت لى فى هذه الحالة بقوانين الزمان، وقوانين المكان التى تنطبق عليك أنت والتى تستطيع أن تراها وتتصورها، ثم تحاول أن تطبقها على فعل من أفعال الله، لماذا، لأن الله ليس كمثله شيء، ومن هنا فإن هذه القوانين التى تحكمك لا تحكمه، والزمن والمكان اللذان تخضع لهما لا وجود لكليهما عند الله سبحانه وتعالى؛ لأنه ليس كمثله شيء الذى أسرى بمحمد صلى الله عليه وسلم هنا هو الله سبحانه وتعالى، ولذلك حين قال بعض الصحابة أيستطيع محمد أن يذهب إلى بيت المقدس، ويصعد إلى السماء، ويعود فى ليلة واحدة؟ نقول: إن محمداً عليه الصلاة والسلام لم يَدَّعِ ذلك، وإنما أسرى به والذى أسرى به هو الله سبحانه وتعالى والله ليس كمثله شيء، ومن هنا فإن قوانين الزمان والمكان وقوانين الدنيا كلها، والقوة والقدرة إلى آخر كل ما يتصوره البشر لا ينطبق على الإسراء لأن الله هو الفاعل والله ليس كمثله شيء،

وإذا كان كل شيء يأتي بالتشابه، فإن الذي يأتي من الله سبحانه وتعالى ليس كمثله شيء، ولذلك عندما نقول: سبحان الله وليس كمثله شيء فإننا نعلو به سبحانه وتعالى علوا كبيرا عن كل شيء يأتي بالتشابه.

إذن.. فكل ما ذكره الله سبحانه وتعالى خذه على أنه له، أما عن كيفيته فلا أحد يستطيع أن يصل إليه لماذا؟ لأنه سبحانه: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ ﴾.

❁ ❁ ❁

ما فوق قدرة البشر اليوم..
قد يقدرهم الله عليه غداً

عندما يحدثنا الله سبحانه وتعالى عن معجزة من المعجزات التى يؤيد بها أنبياءه، أو عن عالم الملائكة والجن الذى لا نراه، فنحن نعرف أن هذه حقائق ؛ لأن الله سبحانه وتعالى قادر، وقدرته لا تقارن بالدنيا كلها، عالم وعلمه لا يصل إلى ذرة من ذراته علم البشر ومن هنا فهو يخلق ما نرى، ويخلق ما لا نرى، ويخلق ما لا نراه الآن، وقد نراه فى المستقبل.

ولكن الله سبحانه وتعالى كما قلت لطيف بعباده، ومن هنا فإنه يضع فى الكون آيات تقرب إلى العقل البشرى، ذلك الذى يعجز عنه هذا العقل، وتجعله قريبا من تصوره، وهو بذلك يريد أن يدخل الاطمئنان إلى قلوبنا، وأن يعطينا الإيمان واليقين بحيث نستطيع أن نجابه المضلين، وأن نرد عليهم، والإنسان المؤمن دائماً فى قلبه سكينة وفى قلبه أمل، ذلك أنه مؤمن بقدرة الله التى هى بلا حدود، ويؤمن بأن الله الذى كتب على نفسه نصر المؤمنين وكتب على نفسه إنجاء المؤمنين، وكتب على نفسه أن يدافع عن الذين آمنوا تلك القدرة الهائلة، قادرة على حمايته، وعلى دفع الضر عنه ولو كانت أسباب الدنيا كلها ضده.

وكما يجادل بعض الناس فى الروح، يأتى واحد منهم ويقول: عن عالم الجن والملائكة مثلاً: أنا لا أصدق إلا ما أراه، ويجادل، ويجادل، إلى آخر هذا الكلام، فإذا قلت له هل شهدت الخلق، هل شهدت خلق الجن والملائكة، يرد عليك: وأنت أيضا لم تشهده، وهنا ترد عليه بأن الله سبحانه وتعالى قد وضع لنا فى هذا الكون الدليل على أن ما فوق قدرة العقل، وما فوق قدرة البصر، وما فوق قدرة السمع موجود فى هذا العالم منذ خلق الله الأرض ومن عليها، وإنما هو خرج من علم القادر، وهو الله سبحانه وتعالى إلى علم غير القادر وهو الإنسان ؛ ليدل على أن ما هو فوق قدرة العقل موجود، وما هو فوق قدرة البصر موجود، وما هو فوق قدرة السمع موجود ولنناقش هذه المسائل الثلاث.

ما هو فوق العقل موجود منذ الأزل، وإن كان قد أصبح فى قدرة العقل خلال السنوات الأخيرة، فأن يطير الإنسان فى الهواء مثلاً بطائرة، كان فوق قدرة العقل فى الماضى بحيث إنك إذا قلت منذ مائة سنة مثلاً: إنك ركبت طائرة، وطرت فى الهواء لاتهمك الناس بالجنون أو الكفر، ولقتلوك، ولو قلت: إنك تحدثت فسمعك ملايين البشر فى كل أنحاء الدنيا فى وقت واحد، لو قلت هذا منذ مائة سنة فقط لما صدقك أحد،

ذلك أن هذا كان فوق قدرة العقل البشرى، ولكنك الآن تذهب إلى أى مطار فتركب الطائرة، وتطير فى الهواء وتتحدث فى الإذاعة فتسمعك الدنيا من أقصاها إلى أقصاها، كيف حدث ذلك، هل اخترع الإنسان غلافا جويا جديدا للأرض يمكنه من الطيران، هل طار حول الدنيا ليضع موجات الأثير، لا هذا ولا ذاك طبعا، إنما الغلاف الجوى كما هو منذ خلق الله الأرض ومن عليها.

وموجات الأثير كما خلقها الله سبحانه وتعالى منذ بداية الكون، ولكن الذى حدث أن الله أدخل الانتفاع بهذه الأشياء مما هو فوق قدرة العقل البشرى إلى علم البشر، أى إن هذه الأشياء خرجت من علم القادر إلى علم غير القادر بكلمة: ﴿ كُن ﴾ فاستطاع الإنسان أن يطير فى الفضاء، وأن يتحدث فتسمعه الدنيا كلها إلى آخر ما حققه وسيحققه العلم بقدرة الله، وهذا دليل قاطع على أن ما فوق قدرة العقل البشرى موجود، وأن العقل البشرى ليس هو الحد الأعلى للعلم والمعرفة فى هذه الأرض، وأنه كلما تقدم الزمن أعطى الله سبحانه وتعالى علماً كان فوق قدرة البشر، أعطاه للقدرات البشرية، حتى يستطيع الإنسان أن يصل إليه، وحتى يؤمن الإنسان أن ما فوق قدرة العقل موجود، وحقيقة واقعة وإن يكن يجهلها.

هذا بالنسبة للعقل، أما بالنسبة لما هو فوق قدرة الأذن فذلك شىء نعرفه كل يوم إذا جلست أنت فى حجرة مغلقة ليس فيها أى صوت وسألت أنا، هل يوجد صوت فى هذه الحجرة؟ تقول لى: أنا لا أسمع شيئاً فإنه لا يوجد صوت، فإذا فتحت الراديو سمعت مئات الأصوات من جميع أنحاء الدنيا، من أين جاءت هذه الأصوات؟ هذه الأصوات تسبح فى جو الحجرة، ولكنك لا تستطيع أن تسمعها بالأذن المجردة؛ لأنها فوق قدرة الأذن فإذا أتيت بآلة استطاعت أن تجعل هذه الأصوات فى قدرة الأذن كان فى إمكانك أن تسمعها وتميزها.

إذن.. فهذه الأصوات موجودة، ولكن لا تستطيع أن تسمعها إلا إذا أتيت بآلة تجعل أذنك قادرة على أن تستمع إليها، وربما فى المستقبل تكون هناك اختراعات أخرى - بما هو فى علم الله، ولم يصل إلى العلم البشرى - تستطيع أن تجعلك تسمع أصواتا لا تسمعها الآن، ولا تدرى عنها شيئا، بل إننى أريد أن أزيد على هذه التجربة لمحة صغيرة إذا أتيت بالراديو الترانزستور، ووضعت سماعة الأذن الصغيرة فى أذنك، وجلسنا نحن الاثنين معا بجوار بعضنا البعض، وسألتنى هل أسمع شيئا، فسأقول لا، هل يوجد صوت هنا؟ فسأقول: لا، بينما أنت جالس إلى جوارى، والسماعة فى أذنك تسمع الدنيا كلها كما تشاء، وأنا بجانبك لا أسمع شيئا، ما معنى هذا؟ معناه أن الجهاز الذى تستخدمه قد التقط الأصوات التى تسبح فى الحجرة، وجعلها فى المكان نفسه، ولكن هذه الأصوات فوق قدرة سمعى، هل معنى ذلك أن الأصوات التى تسمعها أنت بسماعة

الراديو غير موجودة ؛ لأننى لا أسمعها؟ مستحيل، ولكن معناه أن هذه الأصوات التى تسمعها أنت وحدك، والتى هى فوق قدرة أذنى موجودة، ولكنى غير قادر على سماعها ؛ لأنها فوق قدرة أذنى.

بذلك نكون قد وصلنا إلى أن ما هو فوق قدرة العقل موجود، وما هو فوق قدرة السمع موجود، ثم نأتى إلى ما هو فوق قدرة البصر.

أنت تقول أنا لا أدرى العوالم الأخرى التى يتحدث عنها الله، ومن هنا فهى غير موجودة وأنا آتى لك بنقطة ماء من الترعة، وأقول لك هل ترى فى هذا الماء شيئا؟ ستقول: لا، وعندما أضع الماء تحت الميكرسكوب تظهر فيه مئات الجراثيم الدقيقة الحية التى تتحرك بشكل عجيب.. أقول لك: انظر فى الميكروسكوب، سترى هذه الجراثيم بينما الإنسان المريض حينما تأخذ نقطة من دمه، فإنك لا ترى فيها شيئا، فإذا وضعتها تحت الميكرسكوب، أو وضعت عليها سائلا معينا تكشف جراثيم وأشياء عجيبة، أين كانت هذه الأشياء، كانت فوق قدرة بصرك، فعندما استعنت بآلة مكبرة جاءت من خارج قدرة البصر لتصبح من الممكن رؤيتها، ولكن هل عدم رؤيتك لهذه الجراثيم معناه أنها غير موجودة؟ أو أن هذه الجراثيم لم تكن موجودة قبل اختراع الميكرسكوب كانت موجودة قطعا، ولكنها كانت فوق قدرة البصر، وجاء اختراع الميكروسكوب ليدخلها من فوق قدرة البصر إلى القدرة البشرية، ولكنها كانت موجودة رغم أنك لا تراها.

وإذا جلست فى حجرة فيها تليفزيون، هذه الحجرة ليس فيها صورة، فإذا فتحت التليفزيون أصبحت الحجرة فيها صورة، بل ورأيت وأنت جالس أمامك إنسانا يمشى فوق القمر؟ هل فى قدرة البصر أن يرى إنسانا يمشى فوق القمر؟ الجواب: نعم، إذا استخدم إمكانيات الله فى الكون، ولقد استخدم العلم إمكانيات الله فى الكون فى نقل الصورة من مكان إلى آخر، فالعلم لم يخترع طبقات الجو التى تنقل الصورة، ولا يستطيع أن يخترعها بل اكتشفها بكلمة «كن»، والله هو القادر ؛ لأن فى علمه كل هذا وأخرجه إلى علم غير القادر وهو الإنسان، لماذا؟ ليعلم الإنسان علم اليقين، أن ما هو فوق قدرة عقله موجود، وأن ما هو فوق قدرة بصره موجود، حتى إذا حدثه الله سبحانه وتعالى عن قضية غيبية هى فوق قدرة العقل، أو السمع، أو البصر، عرف يقينا أنها موجودة، وأن ما يقوله الله سبحانه وتعالى حق، إذن ما هو فوق قدرة الإنسان موجود فعلا، وموجود بفرق شاسع جدا، هو الفرق بين المخلوق والخالق، والله سبحانه وتعالى أراد ألا تكون هذه القضية الإيمانية - وهى قضية الغيب - مادة للمضلين ليضلوا بها الناس، ويبعدوهم عن طريق الله، فجعل العقل البشرى نفسه ينتقل بقدرة الله من جيل إلى جيل مما هو مستحيل عقليا إلى ما هو ممكن ليثبت أن ما فوق العقل موجود، وجعل الأذن تستطيع بقدرة الله أن تنتقل مما هو فوق قدراتها العادية، وجعل العين تستطيع أن ترى ما لم تكن تحلم بأنها ستراه،

وكان الله سبحانه وتعالى يستطيع أن يعطى كل هذا العلم للعقل البشرى فى اللحظة الأولى التى خلقه فيها ولكنه لم يرد ذلك حتى يكون العطاء للإنسان عطاء فيه إثبات لقدرة الله، وفيه إثبات لوجود الغيب وفيه إثبات لما هو فوق القدرات البشرية.

على أن العلم البشرى يتحدى فى شيئين رئيسيين، علم مادى يخضع للتجربة البحتة لا دخل فيه لهوى البشر، ذلك العلم هو الذى يتناول المادة فقط، وهو الذى يمكن أن يفحص فى المعمل، وتجرى عليه التجارب، وليس فيه هوى النفس البشرية، وهذا العلم هو الذى أتاحه الله للعقل البشرى، وطلب منه أن يجتهد فيه، ووعد الله بأن يكشف آياته فى الكون لأولئك الذين يعملون، ويبحثون، ويجرون التجارب ويجتهدون، وعلم آخر هو علم تدخل فيه الأهواء، وذلك ما لا يدخل فى معمل، ولا يمكن إجراء تجارب عليه وهذا العلم مثل النظريات الفلسفية، والسياسية، وكل شيء لا يخضع لتجربة المعمل؛ لأن العلم تختلف فيه الأهواء وتتصارع، وسيظل الصراع بينهما إلى يوم القيامة؛ لأن هذا العلم لا يستند على أسس مادية موضوعية بحتة، وإنما تدخل فيه الأهواء الشخصية.

النوع الأول من العلم صاحبه يظل يعانى حتى يصل إلى هدفه، فإذا وصل إلى الهدف استفاد منه الناس كلهم، فالعالم مثلا الذى يجرى تجارب فى معمله، على اختراع جديد أو شيء جديد، يظل يسهر لليالى طويلة حتى يصل إلى نتائج، فإذا وصل إلى نتائج استفادت منها البشرية كلها، وإذا أردنا أن نضرب مثلا لذلك، فهناك مثلا اكتشاف الكهرباء، واختراع الراديو والتليفزيون، والتليفون، إلى آخر هذه الأشياء التى اقتضت بحثا من أصحابها، فإذا وصل البحث إلى نتيجة استفادت منها البشرية كلها.

أما النوع الثانى من العلم، فهو الذى يخضع للهوى، فإن صاحبه هو الذى يستفيد وغيره يعانى ذلك، إنه يضع العلم على هواه، وعلى أساس ما يرضيه هو، ومن هنا فإن صاحب النظرية الفلسفية أو السياسية لا يعانى ما يعانى أولئك الذين يخضعون لها أو ينفذونها.

مقومات الحياة.. وماذا قدّم العلم للبشرية؟

ماذا قدم العلم للبشرية؟ تعالوا نناقش ذلك من واقع التجربة العلمية، إن أساس الحياة البشرية منذ خلق الله سبحانه وتعالى الإنسان لم يتغير ولم يتبدل، ولا يستطيع العلم أن يجد له بديلا، وإنما العلم يقدم الرفاهية للبشر، أى إنه يجعل الحياة أكثر سهولة، وأكثر نعومة ولكنه لا يعطينا مقومات الحياة، بل إن الله سبحانه وتعالى - علما منه بظلم الإنسان للإنسان - جعل مقومات الحياة فى يده، وما أعطاه منها ليد البشر، أعطاه بشكل لا يجعل الإنسان قادرا على إهلاك الإنسان باستخدام أسباب الخلق.

ولنشرح هذه النقطة قليلاً، مقومات الحياة من كرة أرضية، وشموس، ونظام كونى لا دخل للإنسان فيه، ولا يستطيع الإنسان بعلمه أن يتدخل ليخلق كرة أرضية جديدة، أو شمساً جديدة، أو نجوماً جديدة، أو سماوات جديدة، إلى آخر هذا، هذا خلق الله والعلم إذا استطاع أن يكشف الآيات فيه، يكون قد تقدم تقدماً هائلاً ولكنه لم يستطع أن يخلق شيئاً فيه أو يبدله، أو يغيره، وإذا كنا نتحدث الآن، ونحن فى عصر العلم، فتلك حقيقة هامة، لا يستطيع أحد الجدال فيها.

نأتى بعد ذلك إلى مقومات الحياة على الأرض، الهواء، والماء، والطعام، لوازم ثلاثة لحياة الإنسان على الأرض، الإنسان بطبعه لا يستطيع العيش بدون الهواء أكثر من دقيقة أو دقائق، ولذلك أخرج الله الهواء من قدرة البشر على التحكم فى البشر، فالله شاء أن يكون الهواء مباحا للناس جميعا، لا يستطيع واحد أن يمنعه عن مجموعة من الناس فتهلك، بل إنه أخضع الهواء لعدله فكان متساويا بين الناس جميعاً، فقيرهم وغنيهم، وعظيمهم وحقيرهم وذلك الذى لا يملك من أسباب الدنيا شيئا.

فهم جميعا يتنفسون بالسهولة نفسها، والطريقة نفسها من دون أى عناء، فيصلهم الهواء إلى حيث هم، وأينما كانوا، فى حجرات مغلقة، أو فى الطريق، أو فى السيارة، أو فى أى مكان فى العالم، فإن الهواء يصلهم سهلا ميسرا، متاحا للجميع، وهذا عدل الله سبحانه وتعالى، ولا دخل لبشر فيه.

نأتى بعد ذلك إلى الماء، وهو مالا يستطيع الإنسان أن يعيش بدونه يوماً، أو عدة أيام نجد أن القدرة على اختزان الماء قليلة، والقدرة على منع الماء عن البشر قليلة ومحدودة وإن كانت لها إمكانيات، وهنا يتدخل ظلم الإنسان، ولكن بقدر محدود جدا؛ نظرا لأهمية الماء للحياة البشرية.

ثم نأتي بعد ذلك للطعام، فنجد أن قدرة الإنسان على اختزانه ومنعه أكثر، ولكن احتمال الإنسان لعدم تناول الطعام أكثر، ومن ثم فإن الإنسان يستطيع أن يتحمل عدة أيام بدون طعام، ولكنه في الوقت نفسه يستطيع أن يحصل على ما يقيم أوده، أو يبقى الحياة في جسده بسهولة؛ نظراً لأن الكمية التي يحتاج لها الجسم البشري من الطعام قليلة نسبيًا، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لُقيماتٍ يُقِمن أَوَده»[1] أو كمية محدودة من الطعام، وكلما زاد إقبال الإنسان على الطعام فسد جسده واعتلت صحته.

هذه هي مقومات الحياة الثلاثة، شيء لا يستغني عنه الإنسان ولا يستطيع الحياة بدونه أبدا، وهو الهواء، نافذ فيه عدل الله، ليحصل كل إنسان على حاجته بلا عناء، وشيء لا يستطيع الإنسان أن يستغني عنه يوما وهو الماء، متوافر للناس، وشيء ثالث وهو الطعام تحكم البشر فيه أكثر، ولكن احتمال الإنسان للعيش بدونه أكبر، وهنا نرى عدالة السماء في توزيع مقومات الحياة.

أدعو الله أن يوفقنا إلى سواء السبيل، ويهدينا صراطه المستقيم.

❁ ❁ ❁

(١) روى ابن ماجه [٣٣٤٩]: «ما ملأ آدمي وعاء شرا من بطنه، حسب الآدمي لقيمات يقمن صلبه، فإن غلبت الآدمي نفسه فثلث للطعام، وثلث للشراب، وثلث للنفس»، والترمذي [٢٣٨٠] عن المقدام بن معديكرب، وصححه الألباني.